﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِى ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [هود: 50 - 51]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبْلَهُما:

سردُ الدَّليلِ بعد الدَّليل، طريقةُ القرآنِ في تثبيتِ الحقِّ المبين

لمّا ذُكر في النّظم الكريم من قصّة نوح عليه السلام، "ما هو كفيل بغرض السّورة، وختم بأنّ العاقبة دائمًا للمتّقين، أُتبع بالدّليل على ذلك من قصص الأنبياء، مع الوفاء بما سيقت له قصّة نوح على جميعهم السّلام، من الحثّ على المجاهرة بالإنذار"[1]، وقد رتّب السّياق الحكيم القصّتين، بحسب السّبق الزّمني، فجاء بقصّة نوح الّتي استنبتت بها البشريّة بعد الطّوفان، ثمّ أورد قصّة هود سمّيت هذه السّورة بها، وهي هنا قصّةٌ مركزيّة في الصّراع بين الرّسل وأقوامهم، والّذي جسّدته قصص الأنبياء بوضوح وجلاء، "ولم يردْ ذِكرٌ لقوم عاد في الكتب القديمة سوى القرآن الكريم"[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَخَاهُمْ﴾: أصلُ (أخ): أخو، وهو: المشاركُ آخر في الوِلادَةِ من الطَّرفين، أو منْ أحدِهما أو منَ الرَّضاعِ. ويُستَعارُ في كلِّ مُشارِكٍ لغيره في القَبيلة، أو في الدِّين، أو في صَنعةٍ، أو في مُعاملةٍ أو في مَودَّةٍ، وفي غَير ذَلك منَ المناسبات. والأخوّةُ إذا كانت غير الولادةِ كانت للمشاكلة والاجتماع في الفعل، نحو: هذا الثَّوبُ أخو هذا، ونحوه قولُه تعالى: ﴿كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الإسراء: 27]، أيْ: مُشاكلوهم[3]. وقد يكونُ الأخُ: الصَّديقَ والصّاحبَ؛ ومنه قَوْلُهم:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/306.
(2) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير: 2/223.
(3) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أخو).

(ورُبَّ أخٍ لم تَلِدْهُ أُمُّك)[1]، "والنّسبة إلى الأخ: أخَوِيّ، بفتح الهمزة، وإلى الأُخت: أُخْوِي، بضمّها، ومع الأخ: إخْوة، في القليل وفي الكثير: إخْوان"[2]. والمراد بالأخ في الآية: المشارِكُ في نَسَبِ القَبيلَةِ.

2) ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾: أصلُ (عبد): يَدُلُّ على لِينٍ وذُلٍّ[3]، ومنه قولهم: طريقٌ مُعبَّدٌ، أي: سَهْلٌ مُذلَّلٌ؛ لكثرة وطء الأقدام له[4]. والعُبُودِيَّةُ: إظهار التّذلّل، والعِبادَةُ أبلغُ منها؛ لأنَّها غاية التّذلّل، ولا يستحقّها إلّا من له غاية الإفضال، وهو الله تعالى، "والعِبادَة والخضوع والتّذلل والاستكانة، قرائب في المعاني.. والعِبادَة لا تُستحقّ إلّا بالنّعمة، لِأنّ العِبادَة تنفرد بِأعْلَى أجناس النّعم؛ لِأنّ أقلَّ القَلِيل من العِبادَة، يكبُر عَن أن يسْتَحقّهُ إلّا من كانَ لَهُ أعلَى جنس من النّعمة، إلّا الله سُبْحانَهُ، فَلذَلِك لا يسْتَحق العِبادَة إلّا الله"[5]. والمراد بالعبادة في الآية: الخضوع المطلق لله ﷻ وحده.

3) ﴿مُفۡتَرُونَ﴾: أصلُ الفَرْي: القَطْعُ والشَّقُّ، والإفْراءُ للإفساد، والِافْتِراءُ فيهما، وفي الإفساد أكثر[6]. والفِرْيَةُ: الكَذِبُ، فَرَى كَذِبًا فَرْيًا، وافْتَراهُ: اخْتَلَقَه، وفي التَّنْزِيلِ العَزِيز: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ [هود: 35]؛ أي اخْتَلَقَهُ[7]، والافتراء: "العَظِيم من الكَذِب. يُقال لمن عمل عملًا، فَبالغ فِيهِ إنَّه لَيَفْري الفَرْيَ، يَعْنِي لَيقطعُ الأمرَ العجيبَ"[8]، "ومعنى افترى: افتعل واختلق ما لا يَصحّ أن يكون؛ وما لا يَصحّ أن يكون أعمّ ممّا لا يجوز أن يُقال، وما لا يجوز أن يُفعل"[9]. وأمّا المراد بالافتراء في الآية: فهو نوعٌ من الكذبِ، وهو ابتكارُ الأخبارِ الكاذبةِ، ويُرادفُ الاختلاقَ.

4) ﴿أَجۡرًا﴾: أصلُ (أجر): الجَزاءُ على العَمَلِ[10]. ومنه سُمِّيَ الثَّوابُ أجْرًا؛ لأنَّ اللهَ

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: (أخو).
(2) نشوان الحميري، شمس العلوم: (أخّ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عبد).
(4) الجوهريّ، الصّحاح، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (عبد).
(5) ابن سيده، المخصّص: (العبادة).
(6) الرّاغب، المفردات: (فري).
(7) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (فري).
(8) السّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 103.
(9) الكفويّ، الكليات، ص: 154.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أجر).

يَجْزِي العَبْدَ عليه. والأَجْرُ: العِوضُ، مَصْدَرُ أَجَرَهُ وآجَرَهُ يَأْجُرُهُ ويَأْجِرُهُ، والأجير: فعيل بمعنى فاعل أو مفاعل، والاستئجارُ: طلب الشَّيء بالأجرة[1]، وكان الخليل يقول: الأجر جزاء العمل، والفعل أجر، يأجر أجرًا، والمفعول مأجور. والأجير: المستأجر. والإجارة ما أعطيت من أجر في عمل[2]، والمقصودُ بالأجر في الآية: العِوضُ والجَزاءُ على العَمَلِ.

5) ﴿فَطَرَنِيٓ﴾: أصلُ (فطر): يَدُلُّ على فَتْحِ شَيءٍ وإبرازِهِ[3]، يقال: فَطَرَ البِئرَ، يَفطُرها، فَطْرًا، أي: شَقَّها وحَفَرَها. قال ابن عبّاس رضي اللّه تعالى عنهما: كنت لا أدري ما فاطر السّماوات حتّى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا (فطرتها) أي ابتدأتها[4]، والفَطْرُ: الخَلْقُ والإنشاء، يُقالُ: فطَرَ اللّه الخَلْقَ، أي: خَلَقَهُم وأنشأَهُم، وهو إيجاده الشَّيء وإبداعه على هيئة مترشّحة لفعل من الأفعال، فقوله: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الرّوم: 30]، إشارةٌ منه تعالى إلى ما فَطَرَ؛ أي: أبدع وركَّز (ركَز) في النّاس من معرفته تعالى[5]، وتأتي الفِطْرَةُ بمعنى الغَريزَة، والطَّبيعة. والمقصود بقوله: ﴿فَطَرَنِيٓ﴾ في الآية: خلقني وابتدأ وجودي.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

عبادةُ اللهِ وحدَه هي أوّلُ الواجباتِ، وهي خالصُ دعوةِ المُرسَلينَ في كلِّ الدَّعوات

يُخبِرُ تعالى أنَّه أرسَلَ إلى عادٍ أخاهم هودًا ﷺ، فقال لهم: يا قَوْمي، اعبُدوا اللّهَ وحدَه، ليس لكم من إلهٍ يستحِقُّ العبادةَ غيرُه ﷻ، فأخلِصوا له العبادةَ، فما أنتم إلّا كاذِبونَ في إشراكِكم باللّهِ، ويا قوم لا أسألُكم على ما أدعوكم إليه – من إخلاصِ العِبادةِ للّه، وتَركِ

(1) الرّاغب، المفردات: (أجر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أجر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فطر).
(4) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (فطر).
(5) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، الحفّاظ: (فطر).

عبادةِ الأوثانِ - أجرًا، ما أجري على دَعوتي لكم إلّا على اللّهِ الّذي خلَقَني، أفلا تعقِلونَ أنّي أدعوكم لمصلَحتِكم في الدُّنيا والآخرةِ، من غيرِ أُجرةٍ؟! فلو كنتُ أبتغي بدعوتِكم إلى اللّهِ، غيرَ النَّصيحةِ لكم، لطلبتُ منكم أجرًا على ذلك[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نوعُ العطفِ ونكتتُه:

صراعُ الحقِّ مع أهلِ المكرِ، باقٍ على مدى الدَّهر

قوله عزّ ذكره: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾، معطوفٌ على قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ [هود: 25] أي: (ولقد أرسلنا إلى عاد هودًا)[2]، وهو من عطفِ القصَّة على القصَّة، ونكتته بيان الصّراع بين الحقّ والباطل؛ لإيضاح معالم الكفران، ونتائج الجحود والطّغيان، وما اكتنفها من صُدود ونكران، وأنّ الكفرَ دائم، وأنّ إرسال الرّسالات من اللّه تعالى إلى عباده دائمٌ غير منقطع، وهذه أمثلةٌ ناطقةٌ بحقيقةِ الأمرِ، وبقاءِ المكرِ، على مدى الدَّهر.

فائدةُ حَذفِ عاملِ النَّصْبِ:

وظيفةُ الرُّسلِ يجبُ أن تكونَ حاضرةً في الأذهانِ منطوقًا بها في اللِّسان

قوله تبارك اسمه: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾، جاء قوله: ﴿أَخَاهُمْ﴾ منصوبًا بعامل محذوف دلّ عليه المعطوف عليه في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ [هود: 25]، أي: ولقد أرسلنا إلى عادٍ أخاهم[3]، فعطَفَ حرفُ الواو المجرورَ على المجرورِ، والمنصوبَ على المنصوبِ، كما يعطف المرفوع والمنصوب على المرفوع والمنصوب، نحو: (ضرب زيد عمرًا، وبكر خالدًا)[4]، وفائدةُ الحذفِ: تنبيهُ المخاطَب على ضرورةِ استحضارِ معنى الإرسالِ، وأنَّه ممّا يجبُ أن يكون حاضرًا في الأذهان، معمولًا بمقتضاه في الأبدان.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/443، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/329.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/306.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/216.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/166.

دلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿أَخَاهُمْ﴾:

حكمةُ الدّعوةِ تقتضي إرسالَ المعروفِ المألوف

عبَّرتِ الآيةُ بلفظِ ﴿أَخَاهُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾؛ للدّلالة على أنّ له علاقة أخوّة في النّسب، فهو كان منهم ومن نسبهم، وهذا كقولنا: (يا أخا العرب)، بمعنى: يا عربيّ، وإنّما جعل الرّسول منهم لأنّهم أفهمُ لكلامه، وأوثق به ممّن يجهلون حاله، وأرغبُ في اقتفائه[1]، ويفيد ذلك التّلميح إلى أنّ الوصف بالأخوّة، مانعٌ من إرادة الأذى لهم، أو ابتغاء الضّرر بهم، وأنّه أدْعى لقبول الدّعوة، فإنّ الدّاعي إذا لم يكن معروفَ النّسب، فإنّه داعٍ للإعراض عن دعوته.

بلاغةُ الاستئنافِ البياني:

قـول الأنبياء بلاغ مقطوع بصدقه، ودعوةٌ راسخةٌ بثباتِها

جاءَ قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ مفصولًا عمّا قبله؛ وذلك أنّه لمّا ذكر أنّه أرسله إلى قومه، كان ذلك "مظنةً للسّؤال عمّا قال لهم ودعاهم إليه، أُجيب عنه بطريق الاستئنافِ، فقيل: ﴿قَالَ﴾"[2] وهذا على طريقةِ المحاورات في استعمالِ الاستئنافِ البيانيِّ، وجاء التّعبير بذلك الفعل في صيغة الماضي، لتأكيد أنّ منهج الأنبياء بلاغٌ بلسان الصّدق المعبّر لقومه عن مراد الله تعالى.

دلالة أسلوب النّداء:

النّداءُ تنبيهٌ على أهميّة الكلام وتحفيزٌ لقلوبِ الأقوام

حكى النّظم الجليل افتتاح هودٍ ﷺ دعوته بالنّداء، في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾؛ فخاطبهم بالنّداءِ؛ "لاسترعاء أسماعهم إشارةً إلى أهميّة ما سيلقى إليهم"[3]، فإنّ أسلوب النّداء بعبارة ﴿يَٰقَوْمِ﴾، يدلّ على التّنبيه للفت العقول والقلوب، إلى المحتوى المراد من النّداء.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/216، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/94.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/216.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/94.

دلالة الإضافة:

خطابُ الانتماءِ يـوزّث التّأثير، ويُـنـادي على الظّهير

أُضيف لفظُ (قوم) إلى ضمير المتكلِّم المحذوفِ تخفيفًا في قوله عزّ ذكره: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ طلبًا للتّأثير في نفوسهم، بأن يلينوا له، وينصاعوا لقوله؛ لأنّ معنى الإضافة هنا الانتسابُ إليه، فهم منه وهو منهم، كأنّه يقول: يا قومي "الذين هم أعزّ النّاس لديّ"[1]، ولا يغشّ المرءُ من كان عزيزًا عليه، بل المعتاد أن يبذل له غاية النّصح، ويترفّق بهم غاية التّرفُّق، وتلك جبلّة غريزيّة في البشر، لا ينفكُّون عنها، مهما كانت الظّروف، أو اكتنفتهم الصّروف.

غرضُ الأمر ودلالتُه:

الغاية الكبرى من الدّعوات، عبادةُ الله في كلّ الحالات

جاء الأمر بالعبادة في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، دلالةً على أنّ شأن العبادة هو مرتكز التّوحيد في كلّ الدّعوات، فلمّا كانوا يشركون بالله تعالى غيره في العبادة، أمرهم بتخصيص العبادة لله وحده، "وفائدة هذا الأمر الإيذان بأنّ العبادة المقرونة بالإشراك، ليست عبادةً في الحقيقة، فخصّوه بالعبادة إن كنتم تعبدونه"[2]، وإنّما صرّح باسمه تعالى؛ لأنّه ساق ذلك الكلام تعريفًا للنّاس بإلههم الحقّ ﷻ، أي: اعبدوا الله الذي له الجلال والإكرام وحدَه[3].

بلاغةُ الاستئنافِ:

دعـوى الأمـرِ في القرآنِ مشفوعةٌ بتعليلِ البيان

جاءت الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ مستأنفةً؛ لتعليل الأمر بعبادة الله تعالى وحده[4] الوارد في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، ولنفي معبوديّة غير الله تعالى، استقصادًا للتّشنيع بعبادة شريك سواه، فهو "استئناف يجري

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/306.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/103.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/306.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/306.

مَجرى البيان، للعبادة المأمورِ بها، والتّعليلُ للأمر بها، كأنّه قيل: (خُصّوه بالعبادة ولا تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا؛ إذ ليس لكم من إله سواه)"[1].

دلالةُ حرفِ ﴿مِّنْ﴾ وغرضُه:

أيُّ صفاتٍ مستحقّة للعزيز الجبّار فهي منفيّةٌ عنِ الأغيار

أدخل النّظم المعجزُ حرفَ ﴿مِّنْ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾؛ للدّلالة على الاستغراق في النّفي، "أي: ما لكم أيّ إله غيره، فكلمة ﴿مِّنْ﴾ لاستغراق النّفي وشموله؛ لأنّ الألوهيّة تقتضي الانفراد بالخلق والتّدبير، وأن يكون المعبود واحدًا في ذاته وصفاته، ليس كمثله شيء، وقد كانوا يعرفون ذلك، فكيف يكون غيره"[2]، وغرضُ الاستغراقِ استغراقُ جميعِ ما يتصوّره الإنسانُ من الآلهةِ، ذاتًا أو اتِّصافًا، مَهما كانت هذه الصِّفات في نظر الإنسان فهي منفيَّةٌ عن أيِّ إلهٍ سوى الله تعالى.

فائدةُ القصرِ بالنَّفي والاستثناءِ:

النّفيُ يُقوّي الحصرَ والاستثناء يُؤكّد المضمونَ

جاء النّظم الكريم بأسلوب الحصر، في قوله تبارك اسمه: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾، لتأكيد مضمون الجملة، والدّلالة على التّوبيخ والإنكار، بوصفهم الشّنيع ذلك؛ لتعلّقه بافتراء العبادة لغير الله تعالى، "وكلمة ﴿إِنْ﴾ نافية، ثمّ جاء بعدها الإثبات بكلمة ﴿إِلَّا﴾، أي أنتم مقْصورون على الافتراء والكذب المقصود بعبادتكم أوثانًا لا تضرُّ، ولا تنفع ولا تتكلّم ولا تتحرّك"[3]، وإيثارُ أسلوب النَّفي والاستثناء؛ لأنّ النّفي بـ ﴿إِنْ﴾ أقوى في النّفي من (ما)، وجاء النّفي كذلك تأكيدًا لقوّة الحصر؛ لأنّهم افتروا في أخطر شأن، وهو شأن الألوهيّة، فالإله المعبود واحدٌ "في ذاته وصفاته، ليس كمثله شيء، وقد كانوا يعرفون ذلك، فكيف يكون غيره؟ ولكنّهم

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/216.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3716.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3716.

فعلوا غيرَ المعقول، وغيرَ ما يوجبه العقل السّليم، ولذا قال: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾"[1].

بلاغةُ استعمال مفردةِ الافتراء:

الافـــتراءُ أشـدُّ من الـكـذب؛ لما فيه من الاتِّهام المـبـيَّـت والمـكـر الخفيّ

جاء وصفُ عادٍ بالافتراء في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾، ليخبرهم هودٌ عليه السلام أنّهم يعلمون أنّهم يكذبون، أي: أنتم "متعمّدون الكذب على الله في إشراككم به سبحانه؛ لأنّ ما على التّوحيد من أدلّة العقلِ غيرُ خافٍ على عاقلٍ، فكيف مع تنبيه النّقل؟! وذلك مكذِّب لِمن أشرك، أي: فاحذروا عقوبة المفتري"[2]، فوصفهم بالافتراء، كان نتيجة احتدام الصّراع بينهم وبين نبيّهم، حيث تفاقم شرّهم، وأعلنوا كفرهم الصّراح، وفسقهم البواح، وإيثارُ الوصفِ بالافتراءِ هو لبيانِ أنَّهم ليسوا مجرَّدَ كَذَبَة، بل مفترون مصرُّون معاندون على ما هم عليه من الإثم المبين، فالافتراء أشدُّ من الكذب، إذ يلزم منه الاتِّهام المبيَّت، والمكر الخفيّ.

دلالةُ تَكرار النِّداءِ:

تـكـرار الـنّـداء بالاستعطاف، تـأكـيـدٌ عـلى تمحيض النّصح

كرّر النّظم الجليل في قوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ النّداء تأكيدًا للاستعطاف[3]، والجملة لا تخلو من حالين:

الأولى: إذا قيلت في وقت غير وقت سابقتها، فهي جملة ابتدائيّة.

الأخرى: إذا قيلت متّصلة مع سابقتها في وقت واحد، فهي تهويلٌ للأمر، وتنبيهٌ للسّامع، واستجلاب للاهتمام[4].

دلالة نفي السُّؤالِ:

تجريد الفكرة والـدّعـوة من الأغراض المادّية، أصلٌ في قبولها

دلّ النّفي في قوله عزّ ذكره: ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾،

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3716.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 9/306 - 307.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/307.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/95.

على براءته من غائلة الطّمع في دعوته، سدًّا لذريعة الظّنّ السَّيِّئ، وهو شعار كلّ الأنبياء، في مختلف العصور، إشارةً إلى أنّ الأنبياء، تعلّقهم بالخالق لا بالمخلوقين، وأنّهم دعاة لا جُباة، فنفى "أن يكون له في ذلك غرض غير نصحهم"[1].

دلالةُ الإضافةِ:

ديـدن الأنبياء حُـبُّ الـهـدى للنّاس والحرص على أقوامهم

في قوله جلّ شأنه: ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ﴾، كرّر البيان القرآنيّ حكاية خطاب هود ﷺ لقومه، بإضافتهم لنفسه؛ طمعًا منه لتليين نفوسهم ليقبلوا عليه ويشعروا بأنّه منهم، وأنّه يبتغي نصحهم محبّة بهم.

نكتةُ استعمال لفظ (الأجر):

إذا حضر أجرُ الله تعالى انطفأ أجـرُ الـنّـاس وتوارى

آثر النّظم الكريم استعمال لفظ الأجر دون المال في قوله جلّ شأنه: ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ﴾؛ لأنّ الأجر موضوعٌ لما يعطى بمقابل شيء من جهدٍ، وهو ما يعود من ثواب العمل[2]، والمال لا يُشترط فيه ذلك، كما أنَّ هودًا ﷺ موعودٌ بالأجرِ العظيم من مولاه العظيم، فكيف ينظرُ إلى ما في أيديهم من متاعٍ فانٍ؟! فلمّا بلّغهم دعوته، نفى أنّه يطلب على ذلك ما يبتغيه سائر النّاس، تجريدًا لدعوته من عوارض الدّنيا. أمّا إيثار لفظ (المال)، في قصّة نوح ﷺ، فإنّه قد وقع بعْدها ﴿خَزَآئِنُ﴾ [هود: 31] ولَفظ المال بالخزائن أليق[3].

نكتةُ تنكيرِ ﴿أَجۡرًاۖ﴾:

مـا عـنـد الـلـه لـلأبـرار خـيرٌ من أجورِ هذه الدّار

نكّر النّظم الكريم في قوله جلّ شأنه: ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ﴾ لفظَ الأجر، لما في التّنكير في هذا السِّياقِ من معنى العموم؛ فالنّبيّ ﷺ لم يطلب منهم أجرًا مهما قلَّ أو كثُر؛ لأنَّ أجره عظيمٌ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/307.
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 64.
(3) الكرماني، أسرار التّكرار في القرآن، ص: 144.

عند الله تعالى، فمهما قدَّم قومُه من مغرياتٍ فهو يرفضُها، وهذا ديدن الأنبياء والصّالحين، في تجرّد دعوتهم لنفع النّاس وهدايتهم، فجاء بالتّنكير ليعمّ كلّ أجرٍ، صغيرًا كان أو كبيرًا.

سرُّ استعمال: ﴿فَطَرَنِيٓ﴾:

فاطرُ السَّماوات بلا مثال، جديرٌ أن يُطلب منه العطاء والنّوال

آثر النّظم الكريم في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓ﴾ بيان الخلق بالفعل (فطر) دون (خلق)؛ للدّلالة على أنّ الّذي خلق الموجودات بلا مثال سابق، إنّما هو الّذي بعثني، وهو الّذي أبتغي الأجر منه، وفي ذلك تعريضٌ بآلهتهم، الّتي لم تخلقهم ولم تنفعهم فنبّه بذلك على "الرّدّ عليهم في عبادتهم الأصنام، واعتقادهم أنّها تفعل، وكونه تعالى هو الفاطر للموجودات، يستحقّ إفراده بالعبادة"[1]، وفي ذلك تأكيد على أنّه فاطر الموجودات، على غير مثال سابق، فهو يستحقّ أن يُعبد دون سواه. فقوله: ﴿ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓ﴾" أي: ابتدأ خلقي، ولم يشاركه فيَّ أحدٌ، فهو الغنيُّ المطلق لا أوجِّه رغبتي إلى غيره، كما يجب على كلّ أحدٍ لكونه فطرة"[2]، كما أنّه يُشير إلى الفطرة التي فطر الله النّاس عليها، "أي: خلقني على الفطرة السّليمة المستقيمة غير الملتوية"[3].

توجيه المتشابه اللفظيّ:

هودٌ عليه السلام أعرضَ عن مطالبِ الدُّنيا، ونوحٌ عليه السلام تفانى في نُصحِ العبادِ

جاء التّعبير حكايةً عن قول هودٍ عليه السلام: ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓ﴾، وحكايةً عن قولِ نوحٍ عليه السلام: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [يونس: 72]، فيُسأل عن الفرق بينهما؟

والجواب عن ذلك: أنّ لفظ ﴿أَجۡرِيَ﴾، يوحي بأنّه مقابل منفعة، وما يقدّمه هود عليه السلام لهم غالٍ جدّا، ولا يُقدَّر بثمن؛ لأنّ فيه سعادة

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/166.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/307.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3717.

الدّنيا، وفوز الآخرة، وإذا كانت الأجور تقدّم للمنافع المؤقّتة، فالتّعبير في قصّة هود، جاء بإيراد الاسم الموصولِ للتّفخيم، وعبّر في الصّلة بفعل الفطرة، لكونه أقدم النّعم من الله تعالى، المستوجبةِ للشّكر، الّذي يتحقّق بالجرَيان على موجب أمرِه، والإعراض عن المطالب الدّنيويّةِ الّتي من جُمْلتِها الأجرُ[1]. أمّا في قصّة نوح ﷺ، فعبّر بلفظ؛ لأنّه ذكر بعده ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [هود: 29]، فذكر لفظ الجلالة، إيماءً إلى سبب امتناعه عن طرد المؤمنين، وهو خوفه من الله تعالى.

بلاغة الإيجاز بالحذف:

حذفُ الموصوفِ تعريضٌ بغير الله تعالى من الأوثان

في قوله عزّ ذكره: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ إيجاز بالحذف، والمحذوف هو الموصوف الّذي وقع الموصول وصلته صفةً له، والتّقدير: (إنْ أجْرِيَ إلّا عَلَى الله الَّذِي فَطَرَنِي)، وفي هذا الحذف دلالةٌ على التّعظيم؛ لأنّه لا يلتبس بأنّ المراد هو الله تعالى، ففي الحذف مع الفهم اعتمادٌ على شدّة الحضور في الأذهان، بحيث لا يختلف أحدٌ أو يكابر في أنّ الله تعالى هو الفاطر، وفي هذا الحذفِ تعريضٌ بالآلهةِ الّتي لم تخلق شيئًا.

نكتةُ التّعبيرِ بالاسم الموصول:

لا مكابرةَ في أنَّ فاطرَ الكونِ هو الله تعالى وحدَه دون سِواه

آثر النّظم الكريم في قوله عزّ ذكره: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ﴾ التّعبير بالاسم الموصول إبرازًا لعظمته تعالى وجلاله، والموصول هنا مع جملة الصّلة ﴿فَطَرَنِىٓ﴾ في محلّ صفة، فوصف الله تعالى بالصّفة الّتي لا يدافع أحدٌ في اختصاصها بالله تعالى، فهو المتفرّد بكونه فاطر السّماوات والأرض وسائر المخلوقات، وعلى رأسها الإنسان، بحيث لا يتوهّم أحد نسبة ذلك إلى الشّركاء، كما أنّ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/216.

التّعبير بالموصول دون الاسم العلم يؤكّد أنّه "لا يسألهم على الإرشاد أجرًا بأنّه يعلم أنّ الّذي خلقَه يسوقُ إليه رزقَه؛ لأنّ إظهارَ المتكلّم علمَه بالأسبابِ، يُكسِب كلامَه على المسبّبات قوّة وتحقيقًا"[1].

معنى الاستفهام وغرضه:

دعـــوةُ العـقـلِ طردُ الجهل

اتَّجه الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ إلى معنى الإنكارِ على القوم الذين يعبدون من دون اللّه تعالى أصنامًا، فهو يُنكر عليهم "عدم تعقّلهم، أي: تأمّلهم في دلالةِ حالِه على صدقِهِ فيما يبلّغ، ونصحِه لهم فيما يأمرُهم"[2]، أي: أتغفُلون عن هذه القضيّةِ الّتي لا يُغفل عنها لوضوحها؟ وتكونون ممّن يجهل كلّ شيء؛ فإنّ هذا ممّا لا ينبغي أن يجهله أحدٌ من العقلاء[3]. وغرضُ الاستفهام تحريكُ العقولِ، وزحزحة الأفئدة، وإثارة القلوب، فإنَّ العقل إذا غابَ غاب معه العلم، وحضر الجهل، "كأنّه قيل: أفلا تعقلون نصيحةَ مَن لا يطلب عليها أجرًا إلّا من اللّه تعالى، وهو ثواب الآخرة؟ ولا شيء أنفى للتّهمة من ذلك"[4]، فالاستفهام بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، ينسجم مع ما ذكره من انتفاء ابتغائه الأجر، فإنّ من هذا ديدنه، لا يكون إلّا ناصحًا أمينًا.

معنى الفاءِ ودلالتُها:

إذا حضَرَ العقلُ تبدَّدتِ الأوهامُ

عبّر النّظم الجليل في قوله جلّ شأنه: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، عن دعوته ﷺ إلى التّعقّل والتّدبّر، وجاء بالفاء التّفريعيّة الدّالّة على ترتيب ما بعدها على ما قبلها، والمعنى: أنّ حالهم أوجبت تنبيههم إلى أنّ ما هم فيه، يجب أن يتدبّروه؛ لأنّه غير معقول في ذاته؛ إذ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/95.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/95.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/216.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/166.

كيف يعبدون ما لا ينفع ولا يضرّ، وهو حجر لا ينطق ولا يعقِلُ[1]، فدلّت الفاء التّفريعيّة على ربط جملة آخر الآية، بما سبقها، ربطَ المقدّمة بالنّتيجة.

توجيه المتشابه اللّفظيّ:

اختلفت الآيتان فاصلةً واتّحدتا في صدرِها مراعاة للسّياق

اختلفت الفاصلة القرآنيَّة بين قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هود: 50]، وقوله تعالى: ﴿*وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأعراف: 65]؛ فيُسأل: لِمَ خُصّتْ كلُّ آيةٍ بما فيها بعد قوله تعالى: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ﴾؟

والجواب: أنَّ آيةَ الأعراف يسبقها قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأعراف: 64]؛ فلمّا كانت هذه نهاية قوم نوح وكانت عادٌ خلفاء من بعدِهم، وكانت التّقوى وسيلةَ النّجاة من الهلاك، ناسبه قوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأعراف: 65]. أمّا آية هود فسبقها قوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾؛ فلمّا كانت تلك إشارةً إلى ما كان من إغراق الله من أشركوا به وإنجاء مَن آمنوا ولم يشركوا، وكان إشراك عادٍ بعد هذا وتكذيبُهم لما جاءهم به هود ﷺ افتراءً، ناسبه قوله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الكذبُ مخالفةُ الحقيقةِ، والافتراءُ مخالفتُها عن قصدٍ وتبييتٍ

الافتراء والكذب:

الكذب: هو عدم مطابقة الخبر للواقع، أو لاعتقادِ المخبر لهما،

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3717.

على خلافٍ في ذلك، والافتراء: أخصّ منه؛ لأنّه كذب المرء في حقّ غيره، بما لا يرتضيه، بخلاف الكذب فإنّه قد يكون في حقّ المتكلّم نفسه، ولذا يُقال لمن قال: (فعلت كذا ولم أفعل كذا) غير صادقٍ: هو كاذب، ولا يُقال: هو مفترٍ، وكذا من مدح أحدًا بما ليس فيه، يُقال: إنّه كاذب في وصفه، ولا يُقال: هو مفترٍ؛ لأنّ في ذلك ممّا يرتضيه المقول فيه غالبًا، وقال سبحانه حكاية عن الكفار: ﴿ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [هود: 18]، لزعمهم أنّه أتاهم بما لا يرتضيه الله سبحانه مع نسبته إليه. وأيضًا قد يحسن الكذب على بعض الوجوه، كالكذب في الحرب، وإصلاح ذات البين، ووعد الزّوجة، كما وردت به الرّواية، بخلاف الافتراء[1]، فعبّر عنهم بكونهم مفترين؛ لأنّهم كذبوا على الله تعالى بما لا يرتضيه، بأن جعلوا له شركاء في العبادة.

الفَطْر والخلق:

الفطر إيجاد على هيئة مقرّرة، والخلق هو الإيجاد على غير مثال سابق

الفَطْر من (فطر) وهو أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى فَتْحِ شَيْءٍ وإبْرازِهِ[2]. والفَطْر: الشّقُّ طولًا، قال تعالى: ﴿هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣﴾ [الملك: 3]، أي: اختلال ووهي فيه، وفَطَرَ الله الخلق، وهو إيجاده الشّيء وإبداعه على هيئة مترشّحة لفعل من الأفعال، فقوله تعالى: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾ [الرّوم: 30]، إشارة منه تعالى إلى ما أبدع وركز في النّاس من معرفته تعالى، وفِطْرَةُ الله: هي ما ركز فيه من قوّته على معرفة الإيمان[3]، وفطر الله الخلق: خلقهم وبدأهم، والفطرة في قوله تعالى: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾ [الرّوم: 30]، هي الحالة والهيئة الّتي فُطِروا عليها من الإيمان به وحده[4]. فيدلّ الفَطر على الخلق، بمعنى أوّليّة الإيجاد، والخلق على هيئة مقرّرة سابقة عن

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 449 - 450.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فطر).
(3) الرّاغب، المفردات: (فطر).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فطر).

وجوده. أمّا الخَلْقُ فأصله: التّقدير المستقيم، ويُستعمل في إبداع الشّيء من غير أصل ولا احتذاء[1]، فالفطر يدلّ على أوّليّة الخلق، والخلق هو الإيجاد على غير مثال سابق. وفي الآية الكريمة، عبّر بـ الفَطْر، فقال: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، إشارةً إلى أنّه مستقيم على وفق ما خلقه الله تعالى له.

(1) الرّاغب، المفردات: (خلق).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 21 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك :978-9948-768-18-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 21 : المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي :978-9948-768-18-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9725944 بتاريخ 2024/02/06م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»